قرأت العدد الماضي من "الآداب"

الأبحاث

و

القصص

بقلم مطاع صفدي

النظرة الاولى الى ابحاث العدد الماضي ، وهو العدد الذي يلي العدد الممتاز ((نحو ثورة ثقافية عربية)) ، تعطي انطباعا اوليا بندرة البحث ، بمعناه الاصطلاحي . ولكن تصفح العدد يوقف القارىء على منعطفات كثيرة يغص بها العدد لا بالكم ، ولكن بالمشكلات التي تثيرها مقالات نقدية متزايدة . فالبحث اذن هنا هو النقد ، والعدد حافل بالاثارات النقدية المتنوعة .

ولاهمية الموضوعات التي يثيرها هذا النقد ، فان المراجعة تقتضي تقصي هذه الموضوعات ، والدخول اليها بموقف نقدي آخر .

ان اهميتها لا ترجع الى كونها ردودا متبادلة وآراء شخصية حول قضايا فكرية خطيرة ، ولكنها الاهمية الناشئة عن مطابقة هذا السجال الكثيف لمقاييس الثورة الثقافية ذاتها ، التي اطلقتها ((الآداب)) منذ عددها الممتاز .

والواضح ان ((الآداب)) شعرت بالطابع النقدي الخاص الذي يميز عددها الاخير ، فقدمت منذ صفحاتها الاولى ، ردين لادونيس وحليم بركات ، على نقد وجه اليهما سابقا .

وبالرغم من ان رد ادونيس يبدو اقرب الى المناقحة عن قلة شخصية ، الا انه يثير مع ذلك مشكلة اساسية في تقنية القراءة والنقد بوجه عام .

انه يتوجه بعنوان شامل ((ارجوكم ان تقرأوا قبل ان تنقدوا)) ، وكأنه يسجل عيبا واقعيا في بيئة المثقفين الذين ، وبصورة عامة ، لا يقرأون الثقافة .! واكثر من هذا فان النافدين لا يصبرون على استيعاب الموضوع الذي يودون تقييمه ، تحليله ودراسته . وسوف نشهد في هذا المقال مآثر كثيرة لهذا العيب المجيد ، لدى بعض كتاب العدد الماضي . أي ان ما يشكو منه ادونيس سيظل مستمرا كالكنيسة والجامع في عالم الاشياء . هذا الكلام لا يوجه الى الاستاذ دكروب ، ولكنه تعليق على المشكلة العامة التي يثير ادونيس رده الخاص من تحتها .

واذا كان ثمة ما يقال عن السجال بين ادونيس ودكروب ، من خلال هذا الرد فقط ، فهو ان دكروب قد اكتشف في مقال ادونيس جوا عاما من السلبية ضد التراث القديم ، من ناحية ، وموقفا مربطا بمواقف ادونيس القديمة في فصل ثورة الثقافة عن ثورة المجتمع . وبالرغم من ان ادونيس قد اعطى عبارات محددة جدا ، تنبىء عن رؤية مخالفة لما استشعره دكروب ، الا ان ذلك بدلا من ان ينفي اساسية الموقف ، فانه يحيل الى سجال آخر .

انه السجال ما بين فردية المفكر او الشاعر ، وما بين جماعية الحتمية الايديولوجية الصارمة . فالمبدع يبحث عن صوته الخاص ، في حين ان الجماعية لا تريد ان تسمع الا صوت الكل ، أي صوت الواحد . ولذلك فان ادونيس يود ان يحفر اساسه الذاتي في ارض خاصة ، ويريد مع ذلك ان يكون اساسه ذلك جزءا من اساس الثورة العامة ، على ان يظل خاصا به مع ذلك . فهو يثقف موقفه الشعري ، وينقب عن دور الشاعر ضمن ثورية اللغه والمضمون . وهو ما زال يرفض ان يندمج في المظاهرات الشعرية .

وادونيس يصنف نفسه من بين الثوار الشعراء الذين يستهلمون حركة الثورة لا اوضاعها ، والذين يستبقون قضاياها السياسية الملحة بطرح الاسئلة الانسانية ، التي تتناول مستقبل التحول الثوري ذاته .

ولكن المشكلة في دفاع ادونيس ، ان الغموض قائم لا فيما يميزه بين الشعر الثوري الاشبه بالزي ، والشعر الثوري الحقيقي، ولكن فيما يميز شعره هو بخاصة. فهو امر لا جدال فيه ان لدينا نوعين من الشعر الثوري ، احدهما يتناول ادوات الفخر التقليدي بالفاظ جديدة ، والثاني يحاول ان يحفر على الاسس . واما شعر ادونيس ذاته ، فأين انتماؤه ؟

هذا السؤال لا يمكن الجواب عليه هنا ، وهو كذلك لا يضير ادونيس ذاته . والمهم ان يصير الامر كله الى القراءة اولا ثم النقد ، كما نادى هو نفسه .

والقراءة القديمة لشعر ادونيس هي التي ما زال لها التأثير على قراء ادونيس ونقاده ، ومن هنا آراء دكروب . والقراءة الجديدة لم تحصل بعد . ومن المسؤول عن ذلك ، ادونيس وشعره ، ام المثقفون ؟

وفي هذا الفصل كذلك يورد حليم بركات ردا على اشارات نقدية تناولت روايته ((عودة الطائر الى البحر)) . وهو يجد نفسه مقحما في سجال المعركة ضد التراث او معه ، كادونيس . ولذلك يعرض مفهومه للتراث من خلال تحديدات عامة ، لا يختلف معه احد حولها . غير ان المشكلة عند بركات ، كما هي عند ادونيس ، كامنة فيما يحسه القارىء من الجو العام الذي يندرج فيه انتاج هذين الكاتبين. فمن الغضب الكاسح الذي يجتاح كل شيء ، الى الالتزام بالثورة المطلقة ، ذلك هو الاحراج الذي لا يوضحه ما يكتبه ادونيس وبركات . وهو نفسه الذي يدعو الاستاذين عباس وخشبة ، في العدد الممتاز ، الى تناول النقد من زاوية الاستشعار العام ، وليس التحديد الدقيق . هذا فضلا عن ان الدكتور عباس قد التزم بالبحث حول المضمون وتقييمه في رواية الاستاذ بركات ، وكذلك فعل الاستاذ سامي خشبة ، حين اغفل الجانب الفني من هذه الرواية . واذا ما اهمل الفن في عمل فني ، اصبح كالمقال السياسي او الاجتماعي ، وعندئذ لا يكون للجهد الابداعي اي تأثير حي على المضمون . ويهضم بذلك حق الكاتب او المبدع .

نصل الآن الى ما يجب ان يكون دراسة تقييمية للعدد الممتاز ، فاذا بنا تحت العنوان العام ((قرأت العدد الماضي من الآداب)) نصطدم بعنوان يعتذر عن الاول : نظرة الى العدد الممتاز . ان ذلك يضعنا اذن على عتبة التوقع ، وهو ان كاتبي هذا الباب ، عبد الجليل حسن ، وجمال الشرقاوي ، ((نظرا)) الى العدد الماضي الممتاز ثم .. كتبا .

لقد تصدى عبد الجليل حسن خاصة الى مقال للدكتور عصمت سيف الدولة ((الوحدة العربية ومعركة تحرير فلسطين)) ومقالي

شخصيا عن المنهج في ثورة ثقافية عربية .

وفي مناقشة الناقد لموضوعات المقال الاول ، يثير ذلك السجال القديم الجديد دائما ، بين قطبين ، احدهما مـا زال يتمسك بفكرة الثورة الاقليمية ، وينتمي الى نوع الماركسية التقليدية ، التي لا تزال تستريب بالوحدة العربية . والقطب الآخر ، وهو الـذي يتابع تعلقه بثورية الوحدة كمدخل الى كل ثورية اخرى افقية وعمقية . وعلى الرغم من ان تطور الفكر الثوري منذ سنوات قد استطاع ان يتجاوز هـذه الثنائية ، بين الوحدوية والتقدمية ، الا اننا ما زلنا نلمح باستمرار ، نوعا من التقهقر الى مواقف هذه الثنائية ، والعودة الى اقامة الحواجز بين الشعار القومي والشعار التقدمي .

والدكتور عصمت هو احد القلائل من الكتاب الذين مـا زالـوا ينافحون عن الموقف الوحدوي ، ويجددون تحليلـه بالنسبة لتحديات المرحلة الحاضرة ، وهو في ذلك لا تجرفه الموجات اللفظية ، ولا تضلله عن رؤية حتميات واقع الصراع اليومي بين الثورة العربية ، وعقباتها ، المتجسدة اليوم خاصة في الصراع مع الصهيونية والامبريالية ، والنزعة الاقليمية المتجددة العناوين ، من مرحلة الى مرحلة ، ومن منعطف الى منعطف .

ان الناقد ياخذ على الكاتب منطلق المقال ، ومختلف القضايا التي يطرحها ، ولا يرى في دعوته الى تأكيـد النضال الوحـدوي كسبيل اساسي لتحرير فلسطين ، الا خرافة ووهما ، وبحسب تعبيره ، فـان هذا الكاتب هو من اصحاب اليوتوبيا .

وانه لامر عجيب حقا ان يصبح التاكيد على الوحدة العربية وهما وضلالا ، وعيشا خارج المرحلة التاريخية ، كما يقول عبـد الجليـل حسن . فما الذي حدث حقا ، حتى اصبحت قضية فلسطين تنـاقض قضية الوحدة العربية . وان العمل للثانية ما هو الا مزايدة وتهويم في العقائديات المجردة ، وخروج من التاريخ .. هكذا !

ان عبد الجليل حسن يقول في بداية نقده ، انه ما دامت لا توجد دولة وحدوية ، فانه لا فائدة من استخدام الوحدة فـي معركة تحرير فلسطين . وبالتالي فانـه يتصور ان العـرب بمكنهم ، فـي حالتهم الحاضرة ، تحرير فلسطين ! ولذلك فهو يعتبر كل الكلام الذي قالـه الكاتب بالاستناد الى جميع تجارب الهزيمـة السابقة ، حول تكـرار الهزيمة بدون الوحدة ، او وحدة النضال على الاقل ، يعتبره رهانا على الهزائم في المستقبل . فهل لدى عبد الجليل حسن مستقبل آخر يدلنا عليه بدون حد معين على الاقل من حدود النضال الوحدوي ؟

واذا كنت فهمت ما كتبه الدكتور نسيف الدولة ، فان الرجل ، كما اراده الناقد ، لم ينكر على شعب فلسطين حقه في النضال واسترجاع ارضه . ولكنه حذر من الايغال في بناء الاقليمية الفلسطينية ، في وقت تبدو فيه قضية هذا الشعب ، متحدة بمصير العرب اجمعين .

ونظرة الى ما يطرح في سوق العقائديات المتمركسة داخل صفوف المقاومة ، توضح وجود هـذه النزعـة الجديدة ، لاحيـاء الاقليمية الفلسطينية ((التقدمية)) وتسفيه وحـدة النضال العربي لتحريـر فلسطين ، واتهامه بالشوفينية ..

بل ان هنالك تصميما مدروسا لدى بعض فصائل المقاومة علـى برمجـة النضال الفلسطيني التقدمي في الاتجاه الاقليمـي ، تحت غطاء الماركسية طبعا ، التي اصبحت مرادفة للانفصالية والانقسامية ، وهي براء منها . ولقد عبر هذا التصميم عـن نفسه ضمن سلسلة مشاريع مقترحة لقيام كيان فلسطيني يهودي ، غير شوفيني . ولعل الاخ عبـد الجليل قد سمع ببعض هذه المشاريع ، ولعله يوافق عليها كذلك .

لست ارى الدكتور نسيف الدولة وهميا او طوبائيا ، عندما يعرض امامنا سلسلة الوقائع التاريخية التي ما زلنا نعيش نتائجها . فهل ثمة

التتمة على الصفحة – ٨٤ –

القصائد

بقلم فوزي كريم

اللغـة العربية ، والمفردة العربية ، لغـة ، ومفردة صوتية ، بمعنى انهـا تملك طاقـة استثنائية ، تضاف الى قابليـة اللغـة ، او المفردة كرمز من الرمـوز . واقول ، استثنائية ، لانهـا طاقـة معزولة ،تستثنى عادة في استعمـال اللغة ، كأداة ووسيلة (في النثر) ، ولكنهـا تضاف وتجيء طرفا هامـا لا غنى عنه ، في عمليـة الابداع ، اي حين تشارك اللغـة ، لا كأداة فحسب ، بل كغايـة أيضا . ان هذه الخاصة ، قـد عرفت بهـا اللغـة العربية ، وتفردت بوضوح كعلامة فارقة ، في الشعر العربي القديم . حتى اتت – بتفردها – على القيم الادبيـة الاخرى، واحالت ولفترة طويلة ، المقياس النقدي ، انها مهمة جمالية – زخرفية، قـاسيـة .

ولقد كـان الشعر ، المقر الحساس الاوفر حظـا ، في معايشة قابليـة اللغـة على الحركة (سلبا او ايجابا) . بحيث تنعكس عليه . دون تأجيل ، تلـك التطورات والمقاييس ، والقيم الجمالية ، حتـى وصل في مهمته تلك الـى طرف مسدود ، لـم يستطع ان يتجاوزه بنفس الطريقـة الهادئـة المترفـة .

وجاء الشعـر الجديـد .

لا كمحاولة حيية مترددة ، بل بقناعـة وبثقة وبمسؤولية ، تمثلت باصـوات عديدة ، لهـا قيمتهـا التاريخية الهامة ، والذي حصل بعـد ذلـك ان ظاهرة الوصول الى طرف مسدود قد برزت تباشيرهـا علـى الورق ، حتى يتساءل القارىء اذا كـان الشعر في ازمة حقيقية ، ام ان قابليـة الانسان العربي بعد حزيران لم تعـد تحتمل التحديق في الحروف الكئيبـة هـذه .

بالتاكيـد ، لا نملـك ان نميل الى واحـد من هذين ، فالامـر كما يبـدو اكثر تعقيـدا . بالرغم من ان التسليم عادة ((بالازمة)) اصبـح يثيـر فينـا حالة من القرف وعدم التماسك .

ان ظاهرة الوصول الى طرف مسدود ،جاءت سريعـة هذه المرة، ففي الحين الذي تخطى الشعر العربي قرونـا طويلـة ليصل متعبا منهكا الـى تخميسات الحلي ، وليحيل الطاقـة ((الجماليـة)) الـى بدعـة زخرفية ، لم يستطع الشعر الجديد الا ان يتعب ، عبر ربع قرن من الزمـن فحسب – ليعيد ثانية – ولكن بشكل معكـوس – لعبـة ((القابلية المتفردة)) فقـد تناسى ، في ثورته على ((الزخرفية))،القيمة ((الجمالية)) ، ولقـد حطم الثانية في تحطيمه الاولى . حتى احـال المفردة الـى أداة ، دون ان يلتفت الى قيمتهـا الابداعية كغاية ايضا .

ان الاضافـة الرائعة للشعر الجديد تمثلت دون شك ((بالرؤيـا المعاصرة)) للعالم ،((وبتشكيل)) هذه الرؤيـا ،في الطرق الفنيـة المطروحـة ، والتي تمثلت بالبديل الموضوعي ، او الرمزي ،اوالاسطوري ...... الخ . ولا غنى لعمليـة ((التشكيل)) التي هي عمليـة اقوية في النهايـة ، عـن الخاصة الصوتيـة للعربيـة .

ماذا نجـد اليـوم ؟

قصائد كثيرة دون شك ، ولكنهـا تتوقف في حدود استغلال اللغـة كوسيلـة ، بالرغم من الايهام بتقديم رؤيا متكاملـة . لاننا نفهـم تماما ان الشعر العربي عبـر تخطيـه وتطوره لا يمكـن ان يتغافـل عن الطاقـة في المفردة كغايـة ، ويكـون في الوقت نفسه شعرا حقيقيا . معظم ما تقدمه ((الآداب)) لسنوات خلت حتى الان ، يؤكد هذهالظاهرة،

فماذا تعني الكلمة في هذا المقطع على سبيل المثال ، غير انها اداة نثرية للتوصيل لا اكثر :

فدوى يا المع نجمه

تتوهج عبر دم الشهداء

كلماتك لعنة

تنصب على هام الجبناء

كلماتك طلقة

تتغلغل في كبد الاعداء

كلماتك صرخة

كم أذكت سورة احرفها عزفا وفداء.

واين هو الحد الادنى من الجمع بين طاقة المفردة العربية ،وبين الرؤيا المعاصرة ؟ ان ما كتبه محمد النقدي « الى فدوى طوقان » لا يدفعني حتى الى التساؤل فيما اذا كان جادا في هذا ، وفيما اذا كان يضيق ، لو قابلت ابياته هذه ، بابيات تقليدية رثة ، وفيما اذا كان ثمة ما يستدعي اضافة هذا المقطع في الخاتمة ـ مثلا ـ

يا فدوى ، يا أخت الشعراء

يا فدوى لا يخرسك رصاص الاعداء

يا لحن الشهداء

قصيدة حسن فتح الباب ، تخضع لنفس الظاهرة ، فاللغة فيها مجموعة وسائل نثرية لا تنفع في شيء ، تستطيع أن تضع خلاصتها على الهامش . ونستطيع ايضا ان تقرأها دون ان تشعر بحاجة الى الحكم عليها ، فهي تنتمي الى ظاهرة الشعر الذي لا ينتظره القراء ، الشعر الذي يقال ويقال دون ان يطمع قائله بتخطيه ، انه شعر الرضى،والقناعة، الشعر الذي يكتب من اطراف الشفة الباردة ، والذي يتمسك ما زال بمجد التفعيلة الواحدة ، وبالنصر على القافية العقيم . (ولعل هذا الوجه البارد السلفي المتطرف والسلبي في شعرنا الجديد هو العامل الاساس في خلق التيار المضاد المتطرف والسلبي ايضا ، الذي يدعو الى اغتيال اللغة واللعب المترف على انقاضها فليس من شك انالمواجهة المتواصلة لشبيهات هذه النصوص ،الباردة ، ولهذا التساهل الفاجع مع العملية الابداعية ، تسهل بدورها ضيقا مفاجئا يفجر رغبة حارة في التهديم ، وتعلقا « بعدمية » ادبية دون جذور .)

ان حسن فتح الباب حين لا يتردد في كتابة هذه الابيات التي يخاطب بها الاطفال الذين استشهدوا تحت وطأة القنابل الاسرائيلية في بحر البقر :

« ستموتون .. وتحيون ... وتنتصرون

في بضع سنين .. ويكبر كل الاطفال ويفدون نساء ورجالا

وستخلى لمدينتنا الطرقات ويعزف لحن العودة للابطال

وتحيون الشهداء

لا تأسوا ... فسنبقى أحياء ...»

لا يملك شاب في الطرف الاخر ان يتردد ويتحد يجده لائقا، في كتابة « شعر جحيمي » ، لا يكتفي بتوليد المعنى من الاصوات بل يولد منها مخالب واسنانا .

في قصيدة مي مظفر « شيء بلا اسم » ،نقع على ذلك الوجه السهل ، العائم ، والذي ينطلق من اطراف الشفة ، بالرغم من انك تتحسس دفئا هنا وهناك يتخفى وراء عجز الشكل ، حتى لتستطيع ان تقول بان هذه القصيدة لم تكتب بالوقت الذي كان يجب انتكتب فيه . وكأن الشاعرة تحاول بتعنت بالغ القسوة ان تثير ـ بكتابة الكلمات ـ طرفا من مواطف باتت خامدة منذ زمن . انها تبدأ بهمس دافيء « لا ادري كيف أحدد هذا الشيء المغموس ،في دم القلب ..»، ولكن الهمس سرعان ما يستحيل الى تكلف الهمس والى صخب .. والى كذب

« لو كل الاشياء تحرد

لو كل الافعال تبرد

لشكوت اليك جحيم القفز اليومي

ما بين الحب الرائع والغادي ... الخ »

وتنتظم قصيدة طارق عونالله في هذه القلادة غير البرافة ، لقد استثنيت قصيدة ممدوح عدوان « الحرب تزهر اطفالا » عن مجموع هذه القصائد بالرغم من انها القصيدة الثانية في العدد ، لان ممدوح له صوت خاص وجديد اولا ، ولان قصيدته هذه لا تنتمي الى صوته انتماء خالصا ، ثانيا ، فهي بالرغم من « الشكلية » التي يعتمدها في قصائده دائما : البيت الطويل ، الاعتماد على القافية العفوية ... الغنائية العربية .. وبالرغم من الموضوع الذي يعتمده دائماايضا، تبدو هنا مجموعة من القصائد ، ان لم تكن قصيدة واحدة صغيرة، مكررة في سبعة مقاطع .وهي عظيمة القرب بحس القصيدة العمودية. فالمقاطع لا تكاد تنمو حتى تتهشم ، لا باستطرادات وتشعبات في الرموز والاشارات بل بتكرار عاطفة يفرغها الشاعر من طاقتها حتى تستحيل بعض المقاطع تحت ضغط الحاحه الى قوالب لا قيمة فعلية لها في بناء القصيدة ـ ولقد استعملت هنا كلمة بناء مجازا ـ لان القصيدة بالرغم من ان البديل المستخدم يبدأ في زاوية ليتسع حتى النهاية، تبقى مجرد مقاطع مستقلة ، غنائية ، شوهت بناءها الداخلي عناية الشاعر الشكلية .

تنمو القصيدة في البداية نموا رائعا . تتحدث ببطء عن الحرب التي طالت والتي ترعرعت على ضوضائها .. الحرب التي كانت لنا نهرا من الموت ، اخضعناه ـ بعد ان سددنا فيضه ثم لجمنا غضبه ـ الى جليدنا نحن : ان الصورة هنا تنمو الى ذروتها « لقد جاءتنا الحرب ـ الطوفان من اجل تفجيرنافاخمدناها » .

في المقطع الثاني . يبدأ من جديد وينمو حتى نهايته .

« نحن والحرب عشيقان .. » ، ويحول بينهم وبين هذه القوة المحفزة الخالقة المتمثلة في الحرب ، جدار الطفاة الذي يتابعهم باصرار :

« غير انا حينما سرنا اثرا يتبعنا هذا الجدار

وغضبنا

فهجمنا ، حينما فاض بنا اليأس ، وهدمنا الجدار ..

ومنذ المقطع الثالث تبدأ القصيدة تتهشم تحت وقع غنائية سائبة لا يشدها غير « موضوع » لا بديل فنيا له ، فهو يتحدث في مقطع عن الحياة المومس التي ترهلنا بها ،قبل الحرب، وعن الحرب التي اضفت عليها المعنى . وفي مقطع يتحدث عن البطولة ،في الشهادة وفي تدجين الموت .. الخ، دون ان تنتهي الى رؤيا متكاملة ، هي بالتأكيد احدى خصائص شعر ممدوح عدوان الذي قرأناه .

فوزي كريم

تتمة قرأت العدد الماضي

اوضح من ان العرب الذين خاضوا ثلاث حـــروب متوالية متفرقين ، وبجيوش متعددة ، قد تلقوا الهزيمة ذاتها ؟.

وهل اوضح من ان الامبريالية في مؤامراتها انسرية المتوالية على المنطقـة الشرقية ، تكافح اليوم اكبر كفـاح لتعطيل قيام أي نـوع مـن التنسيق بين دول المنطقة ؟ وماذا تمثل مأساة الجبهة الشرقية ، فـي رأي الاخ عبد الجليل ؟ وهذا الحديث سيطول ، ولكن الخطير في آراء الناقد ، هو اكتشافنا اننا لا نزال نصارع البديهيات . نكتشف عند كل منعطف ، وكأننا لم نتعلم شيئا ، وكأننا محتاجون حقا الى البت : هـل الدجاجة اسبق من البيضة ، أم البيضة . هل نحرر فلسطين اولا ، او نقيم الوحدة . ولكن السؤال فاسد من اساسه . اذ كيف نحرر فلسطين ونحن اولا كل منا فلسطين الضائعـة ، بأسباب ضياعها . اذا كـان الفلسطينيون ، وهم بدون ارض ، قد عرفوا اسباب ضياعهم ، واوجدوا مقاومتهم ، فان السوريين والاردنيين والعراقيين الخ ... لـم يعرفوا بعد اسباب ضياعهم لانهم لم يوجدوا مقاومتهم .

ولكن تفجير المقاومة الفلسطينية ، هو تفجيـر المقاومة العربية . ولذلك كانت المقاومة مدخلا موضوعيا تاريخيـا لثوريـة الوحدة ، اما حينما نلح على عزل المقاومة في فلسطينية مزعومة ، ونشرع في تصنيف القوى العربية وراءها ، في مراتب الدعم والتأييد والاخوة .. الـخ ، فاننا بذلك نساهم في اغتيال جوهر الثورية الجديدة . ولا تفيد آلاف الاطنان من التحليلات اللفظية « التقدمية » حينئذ فـي طمس هزيمة الذات . وهي هزيمتنا الدائمة ، قبل ان يهزمنـا عدونا .

ان الدكتور عصمت يشعر ، وله الحق في ذلك ، مع كثير مـن الثوريين العرب ، ان ثمة محاولة عن قصد أو عن غير قصد ، في تغييب السعي الى الوحدة ، عن طريق وحدة النضال العربي بطليعة فلسطينية لتحرير الارض . وان هذا التغييب يتقصد استخدام الجزئيات لاضفاء اهمية الكليات عليها ، لدرجة ان البعض لا يتورع عن اعتبار الشعـار الوحدوي رجعيا ، او انه تخطاه الواقع النضالي . ومثل هذه المحاولة وايديولوجيتها « التقدمية » الزائفة ، هو المرض المخيف الذي يلحـق بكل مرحلة ثورية لاخفـاء اصالتها التاريخيـة ، وطمسها تحت معارك مصطنعة .

فحين انفتح النضال العربي على المضمون الاشتراكي ، ظهر مرض الاستبدال والطمس . استبدال الوحدة بالاشتراكية ، وجعل الثانيـة نقيضا للاولى .

واليوم في معركة المقاومة ضد اسرائيل ، تقـوم فلسفة المقاومة ، وكأنها اصبحت هي البديل عن كل شيء . في حين يدرك المنطق الواقعي الهادىء بكل سهولة ، انه ليس ثمة مقاومة قادرة على الاستمرار ، بدون تغيير بنية الواقع السياسي الخلفي لهـا ، والاحداث الحالية فـي المشرق العربي تبرهن على صحة ذلك كل يوم . فكلما عمق العمل المقاوم كلما فجر حوله التناقضات المنتظر تفجيرها تاريخيا ، وكلمـا احست المقاومة انها ليست معركة حدود منفصلة عن معركـة داخل . واعداء المقاومة اليوم ، هم اعداء الثورة العربية من الامس حتى الغد . وهـم الذين يرون الى المستقبل القريب . فيعدون له العدة اللازمة منـذ الآن ، بتفجير الداخل قبل الاوان في اتجاه مقاومة المقاومة ، ومن خلال قلاع الاقليميات القائمة .

فما الذي يراه عبد الجليل حسن ، ومن معه في موقفه ذاك: انسير في خط تأييد الكيان الفلسطيني بصورة نسلبه فيها في الوقت ذاتـه مقومات هذا الكيان ، وهو كونه صورة صراع يومي للكيان الاشمل ، وهو الوجود العربي كله المكافح معنويا على الاقل ضد الصهيونية والامبريالية خارجيا ، والاقليمية ذاتيا وداخليا ؟

ان نظرة على اليوم الحاضر لواقع المقاومة ، ترينا المأزق الخطيـر الذي تعانيه من محاولة تجميدها كمقاومة علـى الحدود بمعزل عـن الداخل . وهذه المحاولة تجري بصورة مطردة مع محاولة عـزل الصراع على قناة السويس عن الجبهة الشرقية . أي ان الامبريالية والصهيونية ما زالتا تؤيدان ستراتيجيتهما في عزل العرب عـن بعضهم بعضا ، ومكافحة أي حد من اللقاء بين قواهم ، حتى حد التنسيق الشكلي بين الجيوش .

ذلك ان الواقع الانفصالي والانقسامي والاقليمي هو المؤونة الوحيدة لخطط الاعداء ، وهو سلاحهم الموضوعي ضد اي نصر عربي . ونجـيء نحن بدورنا باسم التقدميات اللفظية ، لنعطيهم نفقـا جديدا تحت المقاومة والنضال العربي من ورائها ، ونضيف الى فلسفة الكيانات كيانا جديدا « فلسطينيا » أن يقوم في حقيقته الا على حطام الكيانات كلها.

فمن سيصنع فلسطين العربية الجديدة ، الا القـوة العربيـة الوحدوية التقدمية ؟ ومن اين لنا بهذه القوة ، ان لـم نشعل ثورة الوحدة الجماهيرية النضالية ، ابتداء من حرب الجماهير ذاتها ضـد الكيانات المصطنعة كلها ، كيان اسرائيل وكيان الاقليميات المقطعة لاوصال الجماهير ؟

سيتهم عبد الجليل هذا الموقف بالطوباوية ، ذلـك ان الوحدة العربية برأيه اصبحت مستحيلة وغير واقعية . والحاضر الثوري المقاوم يقول للسيد حسن ، ان الثورة الوحدوية الصاعدة من الجماهير المقاومة في المشرق قد وجدت اسلوبها الموضوعي ، لتفرض جدليتها الجديدة . واذا ما عجزت عن فرض هذه الجدلية ، فان مصير المقاومـة والثورة الفلسطينية سيصبح بعد حين اسفا على حلم ماض .

بقي ان نتساءل اخيرا لم هذا البلتيئيس من امكانية الوحدة ، ولم التوحيد بينها وبين الطوبائيات ، وما البديل عنها اذن ؟ وهل ثمة طريق لتحرير فلسطين الا بصيغة من صيغ الوحدة ؟ وما الذي يجعلنا نعتقـد ان حربا ثالثة او رابعة ستدل النتائج بدون ان تكون طبيعة قوانا قـد تبدلت هي ذاتها ؟

وهل ان تحرير فلسطين هدف اسهل برأي الناقد ، واقرب الـى « الواقعيات » ، من هدف الوحدة « الطوباوي » ، والذي استطعنا مرة ان نحقق صورة مصغرة له ؟ الا يتوقف هذا الهدف على ارادتنا ؟ نقاش البديهيات ، ومع ذلك فما زلنا نختلف حولها !

ان السيد عبد الجليل حسن ينتقل في « نظريه » للعدد الممتاز ، الى تقييم سريع كذلك لمقالي عن المنهج في ثورة ثقافية عربية . فالمقال « يتعب » الناقد ، على حد تعبيره . اذ لا يجد فيه تكرارا لكل ما يكتب ويقال في الاعلام العربي . فان الكتابة التـي تحاول ان تفتـح بعض الزوايا الجديدة المتفاعلة مع التيارات الثقافية العالمية الجديدة، تتطلب بعض الجهد ، لان القارىء العربي اعتاد ان يقـرأ افكاره الخاصة .

والسيد عبد الجليل تعب من قراءة هذا المقال ثم اعلن انه لم يجد فيه ما يستحق هذا العناء ، ولخصه بكلمة واحدة ، وهـو ان « ان الكاتب اجهد نفسه واجهدنا معه لكي يقول لنا هذه القضية البسيطة » وما هي هذه القضية ، تماما على طريقة الاختزال والتعميمات الشائعة لدى كتاب الاعلام ؟ انها قضية عيش الذات ضمـن الالفاظ ، او تعلـق الانسان بالالفاظ دون الاشياء . تماما كما نقول ان الماركسية ، هي قضية تحرر الانسان من الاستغلال ، ولكن لماذا كتب ماركس آلاف الصفحات ، ومـا زال الماركسيون يكتبون آلاف الصفحات .. لانـه ولانهم يريـدون ان « يجهدوا انفسهم ويجهدونا » لكي يوضحوا لنا هذه القضية المعروفة والبسيطة .

ان مئات من العلماء والفلاسفة المعاصرين يعملون اليوم في توضيح اهم اداة للحضارة ، وهي اللغة ، ومع ذلك فانهم يشتغلون علـى قضية بسيطة ومعروفة . ومرضنا اللغوي نحن كذلك بسيط ومعروف ، وهكذا

على طريقة الاختزال دائما .

ثم ان عبد الجليل حسن يسارع كذلك لكي يتهمني انني وقعت فريسة سحر الالفاظ ، اي فيما كنت احلله في المقال . ولماذا لانني اضطررت الى استخدام بعض مصطلحات الفلسفات البنيوية واللغوية . ولعل السيد عبد الجليل يدرك ان اي مذهب فلسفي له مصطلحاته ، التي بواسطتها يقيم ادواته التحليلية ، وهو لو قرأ ماركس في متونه الاصلية ، لوجد كتابته غاصة بالمصطلحات الفلسفية ، ولوجده صعبا متعبا بل من اصعب الفلاسفة ، ولكان قال عنه انه يجهده ويتعبه ليقول له في النهاية ان الغني يسرق الفقير .!

والناقد الذي لا يريد ان يقرأ الا تكرارا لافكاره الخاصة ، والذي شعر ان هذه الالفاظ هي من باب المصطلحات العلمية ، ولكنه يريد مع ذلك ان يرفض علميتها ، فيأتي بجملة من المقال تقوم برهانا عكسيا على ما يدعي . ويتساءل ما هي « مؤسسة الموضوعية العلمية لدى الغرب »، هل يريد الناقد حقا ان اشرحها له ؟.

ثم يناقشني الناقد حول ترجمة بعض المصطلحات ، ويفرض ترجمة معينة ارفضها بدوري اذ انها لا تؤدي المعنى الخاص الذي يريده ماكلوهان منها . انه يقترح الترجمة العامة ، في حين لا بد من نحت الكلمة العربية الخاصة ، للدلالة على المصطلح ، وليس على الكلمة العامة . والمصطلح الغربي (mass - medin) وقد ترجمتها « الكتلة ـ الوسيط » لان ترجمة mass هنا بالكتلة بدلا من الجمهور الصق بالهدف ، فهي تثبت صفة التلاحم المادي لهذا النوع من الجمهور الذي تسيطر عليه عقلية القطيع المسير . وكلمة « الوسيط » وهي اقرب الى المصطلح في هذا السياق ، لانها تعني الجسر الذي تعبر عليه التوجيهات ، وليست هي الاتصال ، والا لكان استعمل لها الكاتب الكلمة الغربية التي تعني الاتصال بلفظه المباشر .

المهم في هذا النقد جوه السلبي العام ، الذي يريد ان يجرنا دائما الى قوالب معينة من الفكر الجاهز ، والذي يغلق على نفسه نوافذ الثقافة العالمية التي لها كل يوم محاولة جديدة لفهم قضايا الانسان والمجتمع . وليطمئن السيد عبد الجليل وامثاله ، ان موقفه ذاك ما كان ليفت في عضد الباحثين عن رؤية اعمق من مجرد تكرار الكلام المحفوظ. ولقد كان دائما ثمة ممثلون لموقفه عبر رحلة هذه السنوات الطويلة التي كان الفكر العربي يحاول فيها ان يتجاوز الفاظ المقلدين ، ليتصل بالاشياء كما هي ، وان كانت تضر بمن يهمه اخفاؤها او تجاهلها ، والمحافظة على تجهيل الآخرين .

ثم يعرض الناقد لبعض افكار اوردها السيد جورج طرابيشي في « وجهة نظر » واحتفل بها هو وزميله السيد جمال شرقاوي ، اي احتفال . ولا بد ان نتوقف قليلا اولا على ما كتبه جورج وهاجم المثقفين العرب ، وانتقى منهم ثلاثة ، هم مطاع صفدي ، ونديم البيطار ، وعصمت سيف الدولة .

واول ما يطالعنا في هذا الصدد هذا التساؤل : ولماذا هذا الانتقاد ، الآن هؤلاء الكتاب تجمعهم الدعوة الى الوحدة العربية ، الآن النزعة القومية ما زالت لها اهميتها لديهم الى جانب جميع ما ينقل ويترجم عن مختزلات الماركسية ؟.

نحن لا نقول ان صرخة جورج طرابيشي وغضبه على هؤلاء المثقفين الثلاثة خاصة تؤلف حملة مركزة على موقفهم القومي . لان جورج قد جاذر ان ينقد مباشرة اساس موقفهم . ودار حول بعض العبارات ، وانتزعها من سياقها ، بذلك الاسلوب القديم المعروف في التجريح « ولا تقربوا الصلاة .. » ثم تقطع عن بقية السياق .

ان جورج لم يجد مثلا ما يرتكز اليه ليحكم على « هلوستنا » جميعا الا بعض هذه العبارات التي ينتزعها من هنا وهناك ومتعمدا عن سوء نية ، بصدد كتاباتي انا خاصة ، انه يرجع الى كتاب « الثوري والعربي الثوري » الصادر منذ اكثر من عشر سنوات ، يوم كان جورج نفسه ما زال غارقا في الفكر القومي السديمي الذي يشتمه الآن ، بعد ان احترف ترجمة الماركسيات ، واصبح هكذا متملكا دفعة واحدة من هذا التراث ، وكأنه هو صاحبه ، وهو الذي يحاكم الآن ، اي ماركس نفسه، كتابة هؤلاء المثقفين .

اولا ان اقتطاع العبارات ، حتى التي يوردها الكاتب على لسان فلاسفة آخرين ، من سياقها ، ثم اقتطاع الكتاب نفسه من سياق تجربة الكاتب ، والحكم عليه هكذا من اولى محاولاته ، او انتاجه ، مع اهمال بقية مراحل تطوره والكتب التي اصدرها في هذه المراحل .. كل ذلك يعني ان الناقد لا يقف موقفا علميا ولا موضوعيا ، ولا يتخلق باخلاق الامانة المطلوبة ، وانه يغش القارىء ويقحمه معه في « هلوساته » الشخصية ، ويصادر حريته ، ليجعله تابعا لايحاءاته الخاصة ، التي لا علاقة لها بالعلم او الثورة .

ان جورج طرابيشي الذي يعيش الآن في بحبوحة الماركسية ، وينكرها على غيره ، يساهم في كتابته هذه بفوغائية الصخب الذي تحاربه الماركسية ذاتها ، وتفترض العلمية والدقة ، لانها هي ثورة العلم في خدمة الانسان والجماعة العلمية .

ولا حاجة الآن لاعادة شرح كتاب طويل لي لارد به على جورج ، ولكنني اجتزىء القول ، ان ذلك الكتاب كان دراسة اجتماعية فلسفية تهدف الى تحليل الثورية في عالم الفكر والادب ، وقد قسمت الى عدة فصول يتناول كل منها تحليل نموذج للثوري الفردي ، والاجتماعي والميتافيزيقي . وهي كلها مراحل غير زمنية ، ولكنها ايقاعات داخل تجربة المثقف الغربي من ناحية ، ولها بدايات لدى المثقف العربي الثوري خلال الخمسينيات من هذا القرن .

ولقد اعتمد الكتاب اسلوب التحليل الاجتماعي والنفسي والوجودي عامة ، لكي يكشف عن البنيات الذاتية لتطور تجربة الثوري . ولا حاجة الآن لاورد العبارات والمقاطع التي تبرىء الكتاب من اتهامات الناقد المتمركس حديثا . ولكن لو عاد جورج الى قراءة ماركس ، وليس الى « ترجمته » ، في متونه الاصلية ، وطالع ما كتبه حول اشكال الانسلاب التي يعانيها الانسان في ظل المجتمع الاستغلالي ، لوجده يحلل الانسلاب السياسي والاجتماعي والديني ، ويكشف عن بنيات هذا الانسلاب بما لا يناقض ابدا مجمل الاتجاه العام لكتاب « الثوري العربي » . ولكن جورج يجير نصا يحلل فيه الثورية الوجودية لدى البير كامو ، على ان يكون عقيدة للكاتب ، ويتهمني هكذا بشطحة قلم انني ارفض الثوري الاجتماعي ، لانني اتحدث عن الثوري الميتافيزيقي . وجورج لا ادري ان كان يعلم ، ان الانسلاب الديني لا بد من تخطيه ، وان مشكلة قافلة كبيرة من الكتاب الذين حملوا لواء الثورة بصورة عامة ابتداء من ديستويفسكي حتى عصر الوجوديين ، انهم كانوا يناضلون من اجل اثبات حرية الانسان اولا امام الانسلاب الميتافيزيقي . ولعلنا ما زلنا نحن داخل مرحلة هذه المشكلة ، وان كنا لا نعبر عنها بانتاج ثقافي ، ولكننا مقودون بها حتى داخل مواقفنا السياسية .

ان جورج يمارس تشويها آخر ، وهو انه يجعل التحليل الادبي بمثابة موقف فكري يدعو له الكاتب ، وان كل ما يكتبه عن لسان مفكريه او ادباء آخرين انما يتبناه الكاتب . في حين لو قصد جورج الى تحليل موقفي الفكري والسياسي حقا للجأ الى كتب عديدة اخرى . ولكن المصيبة ان هذه الكتب لا تحشر اسم ماركس وعباراته حشرا ، وانما تحاول ان تحلل مراحل تطور الثورية العربية ، بأسلوب علمي كان دائما قريبا من ماركس ، ومن كل فيلسوف يرتبط اولا بتحليل الواقع . ان جورج لم يقل كلمة واحدة عن بقية الكتب كلها . وماذا تراه قرأ في الكتاب المخصص لدراسة البنية الثورية الخاصة بالتجربة العربية حتى

مطلع الستينيات ، والذي عنوانه « مصير الايديولوجيات الثورية » ، كيف لم يكتشف الهلوسة في هذا الكتاب ، وماذا عن كل ما في موقف هذا الكتاب من الدعوة الى الثورة العلمية ، وبناء الايديولوجية العلمية، وفهم حركة الجماهير بمنظورها المادي والصراعي . أن جورج لم يقرأ هذا الكتاب ولم يقرأ عشرات من المقالات التي كتبتها لا لكي ابشر بافكار غيري ، ولكن لكي اطبق النظريات العلمية اولا على ما تقدمه لنا التجربة السياسية في مجتمعنا .

ان مصيبة فئة من المتمركسين الجدد انهم لم يدرسوا الماركسية اولا ، ولم يفهموا مجتمعهم ثانيا ، ولا كانت لهم القدرة على المقايسة بين النظرية والتجربة . وانما اكتفوا بشرف الانتساب الى الموضة السياسية . وراحوا من موقعهم ذاك يسفهون كل ما لا يفتتح مقاله او كتابه « باسم الاله ماركس ونبيه لينين وجميع الصحابة المرسلين !!».

أليس هو التغيير في الالفاظ ، والاشياء باقية كما هي ؟.

وما قصدته في مقالي المجاور لوجهة نظر طرابيشي ، التي هي الهلوسة الجديدة ردا على الهلوسة القديمة ؟

وينابع جورج منافشة الكاتبين الآخرين بنفس الطريقة ، وهي اصرار على عدم رؤية الموقف العام للكاتب ، وجري مقصود وراء عبارات تنتزع من سياقها « ببراعة » شهد له فيها زميله الماركسي عبد الجليل حسن ، والشرقاوي .

ومهما كتب طرابيشي وزميله ، فانني لا استطيع ان اتصور ان عصمت سيف الدولة لكونه وحدويا فهو طوباوي ،وهو لا يفكر علميا . والقارىء غير المنحاز يدرك ان هذا الكاتب ، بصرف النظر عن عبارات جورج المقتطعة من هنا وهناك ، يجدد الصياغة العلمية لواقع التجربة العربية اليوم ، باوضح مما يفعل كثيرون من الذين يتسلحون بالايديولوجية الماركسية ، ومع ذلك يظلون يتابعون رؤية عرجاء لهذا الواقع ، متعاكسة مع الماركسية ذاتها . اذ يصبرون على تقطيع اوصال النضال العربي ، والسير به عكس حركته التاريخية من الكل الى الاجزاء ، ومن المجتمع الى البيئات الاقليمية .

وليس هذا الكلام ليوجه الى طوائف اخرى من الماركسيين العرب الذين يحاولون بدأب وجدية تطبيق الفكر العلمي بشكل عام على المجتمع العربي وثوريته . ولذلك لا يمكن لزمرة المتمركسين اللفظيين ان يدعوا انهم يمثلون هم الفكر العلمي الجديد ، بقدر ما يخلقون من التباس مصطنع ، اصبح يدركه القارىء العربي ، ولا يؤخذ بصخبه ولا دعاونه.

وكذلك فان حملة طرابيشي على الدكتور نديم البيطار ، تصر على اخذه ببعض العبارات ، وتهمل موقفه العام . وبالرغم من انني اختلف كثيرا مع الدكتور البيطار في منطلقاته الفكرية ، الا انني لا اؤيد قيام جحر ماركسي عليه ، واتهامه بالنازية والفاشية .

ان جورج جريا على طريقته العجيبة في تضليل القارىء ، يقتطع بعض الآراء التي يوردها الكاتب لغيره ، ويلبسها للكاتب . وهو اذ يحلل في كتابه مختلف انماط الثورية ، بما فيها الثوريات المضادة والثوريات الدينية والصوفية ، بطريق الباحث العلمي الذي غرضه ان يعرض لمختلف اشكال الثورية ، تنويرا للعقل العربي الذي يساهم كثيرون في اغلاق نوافذ المعرفة عليه ، وحشره في دين جديد من الالفاظ والطقوس ، وكان من « براعة » طرابيشي ان اوحى لزميليه حسن والشرقاوي ، ان هذا الكاتب يدعو للفاشية ، لانه اتى على ذكرها وتحليلها في كتابه ، فاستشاط الزميلان غضبا ، وهددا بأن يفضحا هذا الكاتب اذن .

وهكذا يصبح الدكتور نديم البيطار ، بكل جهوده العلمية الفنية ، التي حاول ان يغني بها الثقافة الثورية المعاصرة ، في الظروف الصعبة الحاسمة ، يصبح عدوا للشعب رقم واحد . يقول عبد الجليل « ان هذه الايديولوجية بطانة بالغة الخطورة لاتجاه فاشي » . ومسكين يا دكتور بيطار ! لقد كان ذنبك علميا انك حاولت ان تعطي علما اجتماعيا كاملا للثورة ، وذنبك سياسيا ، وهذا هو الاخطر لدى بعض المتمركسين، انك وحدوي ، وانك قد اعلنت في مقال اخير لك ، انه لا بد من الارتباط بالثورة الناصرية الوحدوية !

وبعد فليعذرنا القارىء بان اطلنا عليه ، فان العدد الممتاز واصداءه في العدد الذي يليه ، قد اثارا مشكلات ليس لها اهمية علمية ، بقدر ما لها صلة واضحة بأمراض الاعلام الذي راح ينتقل الى الثقافة بكل غوغائية ، ليمنع نهضتنا العلمية الحقيقية ، لا بالترجمة ولا بالطقوس اللفظية ، ولكن بالمعاناة والقدرة على رؤية الواقع وفهمه .

نقد القصص

قد تكون القصة العربية تتقدم ببطء ، او انها تعاني مما يشبه الشلل منذ مدة بعيدة . ولعلها وهي كتابة ابداعية قبل كل شيء ، لا تستطيع ان تلحق بالاحداث ، ولا ان تلهث وراء المواقف الانسانية التي لا تتبدل بسرعة تبدل الاحداث . ومع ذلك فلقد حاولت القصة ان تمنح قليلا او كثيرا من موضوع احداثنا الراهنة ، من جو النكسة والفداء والثورة الفكرية العامة التي تجتاحنا . غير ان هذه المحاولات قد تستطيع ان تأتي بموضوعات جديدة ، ولكنها غالبا ما تعجز عن نحت رؤيتها الفنية الجديدة للعالم ، وتقصر عن ايجاد الاسلوب المتفق مع نوعية الموضوعات الملحة عليها ، من خارج الاطار الفني نفسه ، من عالم السياسة والاحداث المصيرية .

واذا كانت الفدائية قد كونت موجة جديدة من الادب الذي يتناول هذا الموضوع ، فان القصة ، بعد الشعر والفكر ، ظلت في مرتبة اضعف مما حققه مثلا شعر المقاومة ، والفكر الثوري الجديد . وظاهرة طيبة اقبال القراء على هذا الفكر والشعر ، مع تردد في متابعة الانتاج القصصي الذي لم يستطع اجتذاب القارىء بمثل ما اجتذبه الشعر والفكر في هذه المرحلة .

غير ان كل ذلك لا يمنع احيانا من انبثاق عمل قصصي حقيقي ، يسترعي الناقد ، ويقرأه القارىء وهو يحس حماسه القديم للقصة ، ولخصوصية تأثيرها الفني الحي الذي لا يمكن ان يعوض عنه اي نوع آخر من الكتابة .

هكذا استطيع ان اقول انني قرأت قصة الاستاذ اديب نحوي ، وانا احس حماسة مفقودة ، تستبد بي ثانية ، وتدفعني الى اندماج غضوي في بنية احداثها . وتجعلني قارئا اعاني ولا افكر بالمعاناة ، ولا اعود الى تقييم هذه المعاناة الا في قراءة ثانية .

نحن نعرف اديب منذ سنوات بعيدة ، وهو يتابع مذهبا خاصا في الكتابة القصصية . ويوم قرأت له اولى قصصه على صفحات الآداب ، اصابتني الحماسة التي اعانيها الان امام هذه القصة الجديدة. ولقد صدمت منذ البدء بان اديب اختار مذهبه بدقة وعناية . وانه لم يجد فلمه يخوض في بحر الفولكلور الشعبي عفوا ، او عن تقليد . ولكنه غاص على تجربته اليومية هو بالذات . ولماذا .. لانه مثقف شعبي . ولانه يعيش دائما تفاصيل التجربة الشعبية ، لا بين الكتب ، ولكن بين الناس ، الفقراء والبسطاء من ابناء الاحياء الشعبية ، التي كانت لاديب دائما وطنا روحيا يوميا يستمد منه نضاله السياسي ، ومسرته الشخصية بالبراءة والعفوية ، ومعايشته لقاعدة المجتمع العربي، من خلال مشكلات الانسان الموجود الحي . وقصته الطويلة الجديدة « عرس فلسطيني » هي ثمرة ناضجة لمذهبه القصصي ولمذهبه في حياته اليومية .

فهي قصة شعبية فولكلورية ، تنبض بشاعرية الانسان الحقيقية

المعاشة باللهفة والرمز والتطلع الفامض الى مزج الحلم بالواقع، وتجاوز المزيج الى رؤيا تغييرية شفافة ، لا تتصاعد من الشعارات ، ولكنها تدب في عروق الحزن والتراب والبيوت من الصفيح والطين .

والقصة هذه يحاول فيها اديب ان يفيد من جميع عناصر الخلق الفولكلوري ، انه لا يكتب عن موضوع فولكلوري فحسب ، ولكنه يكتبه بأسلوب وعبارة وحس الحياة الشعبية الطبيعية ذاتها . وهو يختار لها بيئة المخيم الفلسطيني . فيحيي لنا تقاليد فلسطينية عربية . وينسج لحمة الواقع بقناعة الفن انها كتابة شعبيدة ونصيحة ، تاريخية واجتماعية . وانها دراسة وفن ، وثورة . وان الكلمات هنا تخرج عن سياق تداولها ، لترصف في سياق من الاثارة الجزئية المتدافعة كدغدغة عميقة للنفس ، قلما يحس بها قارىء لانتاج عربي معاصر .

ان اديب فرح بالمناظر والاحاسيس والمواقف الشعبية ، يراها ينبوعا لا ينضب لاساس النضال كحال انسانية قبل ان تكون حالا فكرية او تنظيمية .

وهو يجد السلوك الشعبي ذاته غاصا بالرموز والقيم والاستحالات العذبة العبقة . ولذلك فانه يحتفل به ويفرح به ، ويجعلنا نحتفل ونفرح معه كذلك ، بنوع من المشاركة الصوفية في مهرجانات الشعب .

ان اديب لا يسعى وراء الرمز بأساليب لفظية وهمية . ولكنه يقص علينا حقا كيف ان العرس الفلسطيني اصبح هو موت الفدائي . لقد اذهلته حادثة الزغردة عندما يتسلم ابناء المخيم نعش الفدائي المقتول . فالموت في ملحمة الفدائية هو العرس .

ولكن الكاتب يجسم لنا بانفعال وصدق ملحمة الفلسطيني كلها . ويجمع ما بين عمق المأساة الواقعية لحياة المخيم ، وما بين عناصر التغيير الكيانية التي طرأت على هذه المأساة ، لتجعلها مدخلا تاريخيا ووجدانيا حاملا للثورة الفدائية .

فلقد استطاع اديب ان يقنعنا بحرارة وايمان ، ان جميع العادات اليومية ، وحتى الطقوس الشعبية ليست كلها عقبات امام الثورة ، ولكنها طاقات من القوة والارتباط بالمعاني الاساسية للانسان تفيد في معركة الثورة ، ان اتيح لها التحريض المناسب .

لقد احيا الكاتب مختلف مراحل العرس العربي ، الفلسطيني ، البصاوي ـ نسبة لقرية البصة الفلسطينية ـ وفجر تفاصيله وايماءاته المكررة ، عن قدرة ثورية حقيقية ترتبط فعلا باعمق صور التراث الشعبي والوطني ، الذي ليس عقبة ـ كما يحاول البعض ان يصوره ـ ولكنه مصادر تحرر بالفعل لا باللفظ .

والكاتب لم يصف لنا هذه العادات والطقوس من الخارج ، فلقد تجاوز معرفتها العلمية، واستبطن طاقاتها على الابحاء والتغيير والتجاوز الانساني لواقع الانسلاب والمهانة . فكتب وفكر وصور شعبيا ، ومن داخل عضوية الطقوس والرموز الشعبية ذاتها . وجال بين روائع هذا العالم البريء ، فلم يخترع الرموز ، ولكنه صادفها فابرزها واغناها .. وجعلها تتنامى كلها ضمن نسيج واحد مزدوج البطانة ، بطانة الرموز الحقيقية كما هي في عضوية التجربة الطقسية ، وبطانة الرموز التي يضفيها الكاتب اكثر واعمق على مادة الرمز الاصلية والعفوية .

فاللاجئون اصبحوا يزغردون كلما استقبلوا شهيدا جديدا لهم . ولكن الكاتب فجر هذا الرمز الطبيعي المباشر ، بأن بنى الملحمة الفلسطينية كلها على اساس طقس الزغردة ، وتقاليد العرس القروي ، وجعلنا نحس ان العروس هي واهلها وجيرانها ينوبون ليس عن الشعب الفلسطيني ، ولكنهم يتصاعدون حقا الى مستوى الفاجعة الانسانية الشاملة . .

وذلك ما كان ينقص دائما كتابة القصة الملتزمة . اذ ان اكثر كتابها جروا على عادة استخدام الاشخاص والاحداث كرموز عن اشياء اخرى ، دون ان يستطيعوا اكتشاف اصالة الرمز اولا وهو في سياق التجربة الفعالة ، ودون ان يقدروا على جعل ما يرمز اليه ، هو الشروط المكونة للفاجعة الانسانية الشاملة .

لقد وصف الكاتب نماذج الاب والام والعروس والعريس الغائب ، وعودته ميتا حيا ، واشياء هؤلاء الناس ولمحات من حياة المخيم ومآسيه اليومية . ولكنه لم يصف ، وانما احيا ، وجعلنا نحيا كل ذلك معه ، على مستوى الواقع والرمز معا .

واذا كان الكاتب يفرق احيانا في استخدام اللهجات والتعابير والاهازيج الفولكلورية ، فانما عذره انه يحب ما يكتب ، وانه يفرح بهذه الكشوف الانسانية ، ويجعلنا نكتشفها معه .

ومع ذلك فان اديب حاول الا يعرض لنا مادته الدسمة تلك الا من خلال تقنية فنية رفيعة ، غير مفروضة فرضا ، ولكنها متنامية مع عضوية هذه المادة ، ومتغلغلة فيها بدقة وحساسية الفنان الممسك بزمام صنعته .

ان اديب قد يبالغ ويضخم وينجرف احيانا مع شاعرية الطقوس، ويجعل لمثل هذه الجوانب الثانوية اهمية فعالة على مجمل الكيان الفني. وهو لا يوفق بذلك دائما . وقد تبدو بعض المقاطع وكأنها نثر فني منفصل عن فعلية القصة .

الا ان كل ذلك لا يقلل من قيمة هذا الاثر . انه متعة وكشف وثورة .

***

يكتب حيدر حيدر قصة يريد ان يجمع فيها بعض احاسيس ضياع « جديد » ، ويؤلف في مجال من التجريد المحض مناخا غير فعال ، لتلك الاحاسيس . ويبدأ قصته وهو لا يدري بالضبط ما يريد ان يكتبه، الا جوه الكئيب ذاته . وهنا ترجع القصة الى نموذج لوحة ذاتية . وبالرغم من انه قد اعطى لكآبته هذه لونا خاصا هو الحياد ، فانه لم يتم شفقا متكاملا حول هذا اللون . وبقي ما يكتشفه قليل الحماسة، لا يصل الى وعي القارىء .

واما قصة السيد عبد الستار ناصر ، فان لها مطمحا رمزيا واسعا، حاول فيه الكاتب ان يعيد استثمار موضوعة البحث عن انسان ضائع خارج الكاتب ، قد يكون هو الكاتب نفسه او لا يكون . وعندما وضع له اسما هو شريف نادر ، فكأنه لخص القصة في البحث عن شريف نادر . غير ان هذا الرجل الذي اعطاه صفة القتل والجريمة ، بقي في النهاية غامض الدلالة .

اذ ان القصة وضعتنا عند حدود اوصاف نفسية لم تسفر عن تقنية معينه ، تؤدي بنا في النهاية الى مضمون فني او انساني بارز المعالم .

وتبدو قصة أم الوز خطوة موفقة في المطابقة بين لوحة من الحياة الشعبية ، هذه المرة الحياة في البادية ، وبين بعض الاعياءات الثورية. ولكنها تظل اقرب الى الرمز السياسي المباشر ، عندما تقص قصة البحث عن الماء للخراف العطشة ولا ماء الا وراء الحدود .

بقي ان نتساءل اخيرا لم هذا التيئيس من امكانية الوحدة ،ولم اديب نحوي . وهي واحدة من رموز التقدم المبدع في حقل القصة .

مطاع صفدي